النصارى في مكة

قبل الهجرة

معلومات وملاحظات

من آثار المرحوم الاب لامنس اليسوعي

٢

آخر مَن ذكرنا من النصارى في مكة وجوارها بعضُ التجّار الذين كانوا يأتون المجتمع القرشي بالحبوب ، والزيوت ، والخمور .

وكان هناك غيرهم من ارباب الصنائع المختلفة كالقصّابين ، والحدّادين ، والحجّامين . وكلّهم كان العرب يدعونهم « بالملوج »[1] على انهم يتدحون مهارتهم في الصناعات ، كما نعرف من حادثة ابي لؤلؤة على عهد عمر بن الخطّاب . ولنا في متفرّق كتب الاحاديث ذكر لبعضهم ، عبيدًا او موالي ، اشتهروا بالتجارة[2] ، وصنع الاسلحة[3] ، واصلاح الاحذية[4] ، بل ان هناك ذكرًا لعبد من السودان كان يصنع التماثيل في المدينة[5] . وهناك تجّار من الاقباط ، او من الروم ، قام بتسقيف الكعبة ، قبل دعوة النبي بعدة سنوات . وكانت الكعبة لا تزال « لا سقف عليها »[6] . ثم ان اسرة بني مخزوم ، مَن عرفناها بالغنى والسهر على مصالحها

---

١) اسد الغابة ٤ : ٧٥

٢) اسد الغابة ٤ : ٢٦ ، ٢٢٦ ؛ ٥ : ٥٠٧ . ولم يكن في المدينة ، على عهد النبي ، بوق غير واحد (السهودي : الوفاء ١ : ٢٨٠)

٣) اسد الغابة ٤ : ٢٤٨

٤) اسد الغابة ٥ : ١٢٤

٥) اسد الغابة ٥ : ٥٦١

٦) ابن هشام : السيرة ١٢٢ ؛ اسد الغابة ١ : ١٦٢ ؛ *Chroniken, W., III, 50* ؛ السيرة الحلبية ١ : ١٥٥ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٢٨٣ ؛ السهودي : الوفاء ١ : ٢٨٠ . بيد ان اسر تنوم (باخوميوس) المُطلق على هذا التجّار يميل بنا الى ترجيح اصله النبطي .

التجارية والاقتصادية ، كانت تستخدم الكثير من العبيد الاحباش في صناعاتها المختلفة محوّلة المواد الأولية التي كانت تستقدمها من اليمن ، حتى اذا دنت ساعة الخطر واضطرب الأمن ، أسرع المخزوميّون فسلّحوا هؤلاء الصنّاع ، على نحو ما ذكرناه في مقال « الاحابيش ».[1] وقد عرضوا على محمد معونة هؤلاء « الجنود » بضعة ايام قبل معركة حُنين ؛ فرفض النبي الاستعانة بالسودان[2] . ولعلّه شكّ في اخلاصهم ، وقد خبرهم يوم أُحد.

وكان من عادة محمد ، قبل الهجرة ، ان يزور الحوانيت والاكواخ التي كان يشتغل فيها الصنّاع النصارى. فيحادثهم بشؤون الدين. حتى اتّهمه اعداؤه بانه يستوحي منهم تلك الأخبار التي كان يردّدها على مؤمنيه وسامعيه. فاضطُر النبي الى تبرير نفسه مجادلة ، ذاكرًا ان ما يقوله مجلوٌّ « بلسان عربي مبين » بينما لسان اولئك الاجانب « اعجمي » غير فصيح. هذا ما يُستنتج من بضع آيات حفظت صدى هذه المشاحنة في القرآن ، فجاء فيها : « قُل نزّله روحُ القُدُس من ربك بالحقّ ليثبّت الذين آمنوا وهُدى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ لسانُ الذي يُلحدون اليه أعجميّ وهذا لسانٌ عربيّ مبين ».[3] وفي سورة غيرها : « وقال الذين كفروا إنْ هذا إلّا إفكٌ افتراه واعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاؤوا ظُلماً وزورًا. »[4]

على ان القرشيين لم يكتفوا بهذا الردّ اللغوي. وهم انما كانوا يتحقّقون امرًا واقعاً باختلاف النبي الى معامل النصارى واكواخهم ، ثم يتقدرن على اخباره واحاديثه أنها قديمة معروفة لا ابتكار فيها ولا طرافة فهي من « اساطير الأوّلين. » ولنا في القرآن الشواهد الكثيرة على هذا الموقف : « وقالوا اساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً واصيلًا ».[5] « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على

١) راجع هذا البحث في « المشرق » ٣٦ [١٩٣٦] ١-٢٣ ، ٥٢٧-٥٥٥

٢) الاغاني ، : ٢٣

٣) القرآن ١٦ [النحل] ١٠٤ ، ١٠٥

٤) القرآن ٢٥ [الفرقان] ٥

٥) القرآن ٢٥ [الفرقان] ٦

قلوبهم أكنّة ان يفقهوه ، وفي آذانهم وقرًا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إنْ هذا الّا اساطير الاولين»[1] . «واذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا الّا اساطير الأولين »[2] . الى غير ذلك من الآيات المماثلة[3] . اما النبي فقد اكتفى بالرد اللفري المتقدم حتى اذا كثر اتباعه ، وشعر بقوّته اخذ يتحدّى « الانس والجنّ » ان يأتوا بمثل آية من آياته .

ولا يخفى ما في هذه المناظرة من فائدة لموضوعنا . اذ هي تفيدنا وجود عدد من الاجانب في مكة كان يختلف اليهم محمد . ونستفيد ، فوق ذلك ، ان هؤلاء الاجانب كانوا من الموحّدين[4] . ولم ينكر النبي صفتهم التوحيدية ، ولا اختلافه اليهم . انما انكر ان يكون استقى منهم معلوماته بحجة ان لسانه عربيّ فصيح ولسانهم اعجميّ . اما الفرق بين ما أتى به من المعلومات التاريخية والعقائدية في القرآن ، وبين ما كان ممكنًا ان يتناوله من اولئك الأجانب ، في زعم اعدائه ، فلا يهمّنا الآن ؛ وان يكن النبي رأى في اقواله خاصّة تلك الميزة اللفوية والبيانية الفارقة التي جعلت من القرآن آيةً بل « معجزة » لا يمكن المقلّدين ان يتخطّوها . على اننا نشكر له ما افادنا ، بطريق العرض ، من معلومات عن اصل اصحابه الموحّدين ، وكلّهم اجانب عن البلاد العربية المعروفة : الحجاز ونجد . ولم يكن النبي ليطلب العربية الفصحى من نصارى الحيرة ونجران ، فكيف « بأنباط » الشام ، المتأثرين بالآرامية ، او ببدو الحدود البيزنطية بين الشام واعالي العراق كعشائر بني كلب[5] ، ولغتهم خليط غريب من العربية واللهجات الآرامية حتى

---

١) القرآن ٦ [الانعام] ٢٥ .

٢) القرآن ٨ [الانفال] ٣١ .

٣) القرآن ١٦ [النحل] ٢٦ : ٢٣ [المؤمنين] ٨٥ ؛ ٢٧ [النمل] ٧٠ ؛ ٤٦ [الاحقاف] ١٦ ؛ ٦٨ [القلم] ١٥ ؛ ٨٣ [المطفّفين] ١٣ .

٤) ولا يمكن ان غلبهم من اليهود ، لقلّة العدد اليهود في الحجاز ، اذ ذاك . راجع هنا *Les Juifs à la Mecque à la veille de l'hégire*

٥) واليهم كان ينتسب زيد بن حارثة الذي تبنّاه النبي . ومن الراجح ان زيدًا كان اكبر سنًّا من ابيه ، لانه تزوّج حاضنته السوداء أم أيمن (المطلب 413 ,*Mordtmann*)

انه لم ينبغ شاعر واحد منهم باللسان العربي قبل الهجرة . اما زُهير بن جَناب فاقرب الى الاسطورة المتولّدة في العصر الأموي منه الى التاريخ الصحيح[١] .

وكان هؤلاء الاجانب العائشون في مكة ، فوق مهارتهم بالصناعات اليهودية ، قد احتكروا انواع الفنون على ضآلتها في ذاك المجتمع ، ومظاهر المهن الحرّة ، وكل ما كان يفرض معارف وضعية خاصّة ، او ثقافة علمية ، نادرة بين العرب ، اذ ذاك .

هذا وقد حفظ جمّاع الأخبار والاحاديث كابن رسته[٢] ، وابن قتيبة[٣] ، لائحة بالمهن والصناعات التي كان يمتهنها « اشراف » قريش من الامويين والمخزوميين ومن اليهم . واذا بينهم الحدّادون ، والخيّاطون ، والقصّابون . . . قلنا : من الصعب ان لا نرى في هذا التعداد تأثير الشعوبية الرامية الى اقرار المساواة السياسية بين جميع عناصر الدولة المسلمة ، ومن ثمّ الى الحطّ من ادّعاءات القرشيين بالحطّ من اشرافهم قبل الاسلام . وذلك اننا نادرًا ما نرى في الهجاء القديم نعتًا محتقرًا « كالقَين » اي الحدّاد[٤] . وقد سها ابن رسته عن هذا الأمر ، على ما يظهر ، عندما نظّم او نقل لائحة صنّاعه القرشيين . بيد ان هذا السهو يظهر اعجب منه في كتاب ابن قتيبة المتعصّب للعرب المنادي ، في « كتاب العرب » المشهور ، بفضلهم على سائر الناس .

ومما لا شكّ فيه ان الاطبّاء ، والجرّاحين ، واطبّاء الاسنان كانوا كلهم من النصارى في مكة . وكان لمهارتهم فضل يُذكر في مجتمع بدوي ، سريع الهيجان ، عرضة للغزو على مدى ايامه . وقد نسب المؤرّخون لهؤلاء الجرّاحين عمليّات لا بأس بدقّتها . من ذلك انهم كانوا يبدلون بالانوف المقطوعة[٥] انوفًا من الذهب او

١) راجع *Berceau*, I, 320 ولا شك في ان شره متحول . وهناك كلبي آخر اسمه دحية بن خليفة كان يتمثّل بالملك جبريل ، ولكنه لم يظهر الّا في المدينة . ومن المفيد ان يراجع ، بشأن لغة كلب ، الاغاني ٢٠ : ٣١ .

٢) في جغرافيته (طبعة de Goeje) ٢١٥

٣) كتاب المعارف (الطبعة المصرية) ١٩٢–١٩٤

٤) الطلب *Chantre des Omiades*, 172 ؛ الاغاني ٥ : ١٥٦ ؛ ٧ : ١٨٤ ؛ ديوان الاخطل ٢٢٢ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ١٥٢

٥) نرى ، في تاريخ ذاك العصر ، كثيرًا من المدعوّين « بالمطيم » ، اي صاحب الانف

الفضة[1]؛ وكانوا يذهّبون الاضراس ويثبتون المتقلقل منها بالخيوط الذهبية.[2]

ولما كانت مكة مدينة تجارية ووسطاً اقتصادياً مهماً، كان لا بدّ من من الكتّاب والحسبة. وهو امر لم ينتبه لـه التفسير القرآني عندما فسّر لفظة «أمي» بجاهل القراءة والكتابة. ومن المعروف ان أسرى بدر من القرشيين تحوّلوا الى معلّمين يدرّسون ابناء الأنصار، مزارعي يثرب، المنتصرين عليهم[3]. فكان جميعهم، حتى الفقراء منهم، يتمكنون من القيام بهذه المهنة الجديدة. كل هـذا يدلّ على ان الكتابة كانت رائجة، ان لم نقل واسعة الانتشار في مكة. بيد ان مؤرخي العصر لا يذكرون اسم معلّم واحد من القرشيين. ذلك ان القراءة والكتابـة كان يعلّمها الاجانب وحدهم. وكان من رغبة القرشيين في التعلّم ان بعضهم كان يقصد المعلّمين حتى مدينة الحيرة النصرانية[4].

ولنشر اخيراً الى وجود جبّانة خاصّة بالنصارى في مكة[5]، وهذا دليل جديد على وجود مجتمع نصراني في عاصمة القرشيين.

* * *

ولننتقل الى عنصر ثانٍ من عناصر الـسكّان. فنرى ان عـدد النساء كان وافراً في البيوتات القرشية. ذلك ان السياسة العامّة، والحاجة الى مخالفة اسياد القبائل البدوية، كانت تدفع رجالات قريش الى الاكثار من الزواج[6]. وعناك

المضروب، كقيس بن الخطيم الشاعر اليثربي؛ الاغاني ١٣ : ١٠٢؛ اسد الغابة ٣ : ١٠٢، ٢ : ١؛ ومنهم من دُعي «بالاسلت»، اي ذي الانف المقطوع؛ ابن دريد: الاشتقاق ٢٦٦؛ ابو زيد: النوادر (طبعة بيروت) ١١٤؛ Lammens, *La Mecque*, 210, 217, 305.

١) نرى مناقشة لطيفة حول هذا المعنى في ابن الاثير: النهاية ٣ : ١٩٩؛ ٤ : ٢٠٥-٢٠٦؛ الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ٢ : ٢٠٩؛ البَغَوي: المصابيح ٢ : ٨٥؛ اسد الغابة ٣ : ٥١، ١٩٢، ٤٠٠؛ ابن حنبل: المُسند ٤ : ٢٤٢، ٥ : ٢٢.

٢) كان النساء احياناً، في عراكهنّ، يكسر بعضهنّ اسنان البعض الآخر: اسد الغابة ٥ : ٤٥٢

٣) ابن سعد: الطبقات ٢ : ١٤. وقد يكون في ذلك حملةٌ امارية موجّهة الى القرشيين، ولا يخفى ما كان يحيط بهنة معلّم الاولاد من الازدراء في القرن الاول للهجرة (راجع *Mo'tazia*, 359-361)

٤) ابن قتيبة: المعارف (الطبعة المصرية) ١٨٧

٥) الازرقي ص ٥٠١ في *Chroniken der Stadt Mekka* de Wustenfeld

٦) كان لصفوان بن امية ستّ نساء عندما اسلم (اسد الغابة ٥ : ٥٠١)

عادة اخرى كانت تدفع المجير او المحالف الى التزوّج بارملة « الحليف » المتوفّى[١]، فيؤمّن لها حياتها.

ذكرنا، في احدى حواشي البحث السابق، رواية تمثيلية لهنري دي برونيه. وقد جاء فيها، في خصام بين حفصة بنت عمر وضرّتها عائشة بنت ابي بكر[٢]، هذا القول تحمل به حفصة على عائشة:

Et puis un peu chrétienne au fond, comme sa mère,
Lisant dans l'Evangile une journée entière ! [٣]

فتكون والدة عائشة، امّ رومان، والحالة هذه، من نساء النصارى. قد يكون المؤلّف استند، في هذا الاكتشاف، الى اسم «رومان»، الذي خاله مصحّفاً، على ما يظهر، عن اسم « رومانوس » المسيحي[٤]. وفي الواقع ان بني رومان كانوا جزءاً من قبيلة طي النصرانية. ولا سند للاشتقاق اللغوي الخيالي الذي يذكره ابن دريد[٥]. بيد انه ليس لنا في ترجمة امرأة ابي بكر ما يشير، وان اشارة ضئيلة، الى اصل نصراني[٦]. ولكن مهما يكن من أمر فان «الاحلاف» النصارى لم يكثروا بالعدد الكثير في بيوتات القرشيين في مكة.

ولم يكن الخلفاء عثمان ومعاوية ويزيد لينفروا على زواجهم بنصرانيات من بني كلب[٧]. ولعلّهم ذكروا، في ذلك، مثل شيخهم ابي سفيان في تزوّجه بنصرانية[٨]، وفي تزويجه ابنته ام حبيبة من احد النصارى[٩]. وكان النبي نفسه،

---

١) ابن سعد : الطبقات ٥ : ١٨٦ ؛ ابن قتيبة : المعارف ٥٧

٢) هذا في الرواية اما في الواقع فقد كانت حفصة على وفاق تام مع عائشة ضدّ سائر نساء النبي (راجع *Triumvirat*, p. 121)

٣) H. de Bornier, *Mahomet*, II, 4

٤) يذكر الهمداني (صفة جزيرة العرب، ١٨٠) رجلاً باسم ابن رومانوس من قبيلة كلب، واكثريتها نصرانية. راجع Jos. Horovitz, *op. cit.*, 128

٥) ابن دريد : الاشتقاق ٢٢٨

٦) اسد الغابة ٥ : ٥٨٣ ؛ وفي موضع آخر (اسد الغابة ٥ : ١٠٧) ذكر لعدد من نساء النصارى في اليمن، تزوّجن رجالاً مسلمين في مصر، بعد الفتح بقليل

٧) راجع كتابنا في *Yazid*، و *Moʿāwia*, 309-312

٨) شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١٣٠

٩) ابن سعد : الطبقات ٨ : ٦٨ ؛ ابن هشام : السيرة ١٤٢—١٤٤ : ابن قتيبة : المعارف

قبل ان يختار عثمان صهراً له[1] ، قد زفّ احدى بناته الى عُتبة ابن ابي لهب . ولكن هذا الزواج لم ينتج سوى مرارة . وثلمة اثّرت بالنبي طويلاً . ولعلّ من آثارها تلك الآيات الشديدة التي خلّدت بالخزي ذكرى ابي لهب . وقد ظلّ الخصام غامض الاسباب ، صعب الشرح ، على رغم ما حاوله المفسّرون من شروح وتآويل[2] . اما ما يظهر جلياً فهو ان عُتبة طلّق ابنة محمد عندما اعتنق النصرانية . وادلى اليه بهذا التصريح الجري : « يا محمد أشهد أني نصراني قد كفرت بربك ، وطلّقت ابنتك »[3] . هذا ما نقله صاحب الاغاني . وقد يكون في الحكاية تحامل على أسرة ابي لهب[4] . ولا اعرف سنداً آخر لنصرانية عُتبة . ثم ان زواج بنات محمد ، بل عددهنّ ، عرضة لكثير من الغموض والصعوبات ، وقد حاولنا مناقشة شيء من ذلك في بحثنا عن فاطمة وبنات محمد[5] ، فليعد اليه من يشاء .

على ان هناك رجلاً قرشياً لم يشكّ احد بنصرانيته ، هو عثمان بن الحُوَيرث الأسدي . انما يتفق المؤرّخون المكيون على جعله يدين بالنصرانية في أرض الامبراطورية البيزنطية[6] . ولا عجب ، وقد عرفنا نزعتهم الى اقصاء كل من دان بالنصرانية من كبار قريش ، حتى ليجعلون قيصر بيزنطية نفسه يتمّ بيزنطيّاً متنصّراً[7] . وهكذا خرّجوا نصرانية زوجي سودة وام حبيبة اللتين تزوّجهما

(القطيعة المصرية ١٤٣ . يقال عن هذا الزوج انه « غرق في الخمر ويقال بل غرق في البحر » (البلاذري : الانساب (مخطوطة باريس) ٣٨٤ وجه) وهل يكون لهذا « الغرق في البحر » من أثر في تكوين اسطورة الهجرة الى الحبشة ؟ — وراجع ، في نصرانيته ، السيرة الحلبية ١ : ٣٥٩ . اما « الغرق في الخمر » فقد قيل عن الاسود وحتى انه مات غرقاً في الخمر (ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٥٩)

١) وقد بلغ من حبّ النبي لعثمان انه قال : « لو كان لي اربعون بنتاً زوّجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهنّ واحدة » (الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٣٣٧)

٢) راجع اسد الغابة ٥ : ٤٥٦ ٣) الاغاني ١٥ : ٢ : راجع ج *Fatima*.

٤) وكثيراً ما تحيّز صاحب الاغاني الى العلويّين ، على خلاف ما يزعم نولدكه : راجع الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ٣٣٣ ، مستغرباً هذه النزعة في رجل اموي الاصل.

٥) *Fatima*, ٤١٢ ٦) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٦٨

٧) راجع الاغاني ١٣ : ١١٢ . وقابل بحادثة مضحكة في اسد الغابة ٤ : ١٤٣ ، وهي مستوحاة من اسطورة امرئ القيس

النبي بعد ذلك ، فقالوا ان زوجيهما الأولين تنصرا في ارض الحبشة[1] . اما عثمان ابن الحُوَيرث فالحق أنه دان بالنصرانية قبل رحيله الى بلاد بيزنطية ، ولا شك ان صفته النصرانية دفعته الى تلك الرحلة ، لاجئاً ، في تحقيق اهدافه ، الى القيصر ، ملاذ نصارى الشرق والمحامي عنهم[2] .

ولنا ما يؤيد أنّ تجار الشام النصارى كانوا يدعون علناً ، في يثرب ، الى ايمانهم ؛ ولا من يمنعهم او يقلقهم في دعوتهم[3] . وليس ما يدلّ على ان وطني ابن جدعان وابي أحيحة كانوا اقلّ تساهلاً من انصار المدينة . فقد رأينا النبي يختلف الى اماكن النصارى علناً ، ويباحثهم دون ان يعترضه معترض . هذا اذا استثنينا اولئك الذين اشرنا اليهم ، مستندين الى القرآن ، والذين كانوا ينتقدون على صاحب الدين الجديد تقليده ، وايراده «الاساطير» القديمة المعروفة ، ونقله عن الاجانب آيات قرآنه[4] . وقد كان من هؤلاء من يلفت نظر الموحّدين فيصرفهم عن الانخداع باقوال « الغلام » او « الفتى » الداعية الجديد[5] ، مؤيّدين سموّ العقائد الانجيلية على ما كان يأتي به من اقوال ، صائحين بعدّاس:[6] ويحك يا عدّاس ، لا يصرفنك عن دينك . فان دينك خيرٌ من دينه»[7] . كل هذا يجري على غير اهتمام من السراة القرشيين ، ابناء تلك الاريستوقراطية المالية الممثلة «بالملاء» او « دار الندوة » التي لم تتأثر بهذه المشاحنات ، كما انها لم ترَ بأساً بدعوات القسس ومواعظهم ، زمن الاسواق المنعقدة حول مدينتهم .

وهناك أسدي قُرشي آخر لا يتردّد المؤرّخون لحظة في اقرار نصرانيته ، ولا

---

١) البلاذري : الانساب ١٢٣ وجه ، ١٢٧ قفا ؛ ابن هشام : السيرة ١٤٣-١٤٤ ؛ اسد الغابة ٣ : ١٢١ ، ٥ : ٤٥٧ ، ٥٧٣ ؛ Caetani, *Studi*, III, 1,1-15 ؛ ابن الاثير : النهاية ٢ : ٢٤٨

٢) في كتابنا عن « مكة قبيل الهجرة » درسنا بتفصيل هذا الامر ، وأبنّا ما كان في جزيرة العرب من تضارب بين السلطات الاجنبية في سبيل التأثير وبسط النفوذ .

٣) اسد الغابة ٥ : ١٧٣ ؛ الواحدي : اسباب النزول ٥٨

٤) القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥ ؛ ٢٥ [الفرقان] ٥ . . . وغيرها من الآيات المذكورة في اول هذا المقال ؛ البلاذري : الانساب ٦٤ وجه .

٥) راجع بحثنا *Chronologie de la Sīra*

٦) ابن هشام : السيرة ٢٨٠ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٩٠

يحاولون — كما حاولوا بشأن الأسدي عثمان بن الحويرث — ان يجعلوه متنصراً خارج الجزيرة العربية. هو ورقة بن نوفل الشهير[1]، نسيب خديجة، اولى نساء النبي. ذلك انهم كانوا بحاجة الى هذه الصراحة في اقرار نصرانيته، موافقة للدور المهم الذي اختاروه لتمثيله. فهو يمثل، لدى الاسلام الناشئ، العالم النصراني باجمعه، فيقر بصحة رسالة محمد[2]، باسم اولئك «الذين أوتوا نصيباً من العلم» على لغة القرآن[3]. ولم يكن من اللائق ان يُعهد بهذا الدور المهم في «دلائل النبوة» الى احد المبتدئين بالنصرانية، او الى من تكون نصرانيتهم عرضة للشك والتردد. وهكذا اصبح ورقة يمثل، في عراقة نصرانيته، جمهور اهل الكتاب. اما لماذا فضله مؤرخو السيرة على رفيقه المعروف «الحنيف» زيد ابن عمرو، وقد طالما ترددوا بين الرجلين في نسبة الاشعار الحنفية المزعومة[4]، فهو ما لا يتسع بنا المجال لمناقشته[5]. ولا يخفى ان التعابير «نصيب من العلم»، و«نصيب من الكتاب» من خصائص السور المدنية، واذاً فهي ترقى الى ما بعد الهجرة. وحينئذٍ اخذ النبي، في احتكاكه باليهود، يعلن الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد، و كلاهما «نصيب من الكتاب» الذي يكمله القرآن، في نظره.

وفي ما سبق، كانت خديجة — التي جعلها الله «وزير صدق» الى جنب محمد في الحالات الحرجة — قد سألت عن الأمر نفسه العبد النصراني عداساً[6]. على ان مؤرخي السيرة خانتهم الذاكرة — او خانت عداساً نفسه — فزعموا، عن لسانه، انه لم يعرف النبي الا في الطائف، بعد ان مرّ على الحادث الاول نحو عشر سنوات. ولا يخفى ان عداساً كان من عبيد الأمويين، وكان مقيماً في

١) الطالب ما نُسب اليه من شعر مالي مضطرب Noeldeke, *Beitraege*, 81-83

٢) اسد الغابة ٣:٢٠٧

٣) او «أوتوا العلم»، او «أوتوا نصيباً من الكتاب» (القرآن ٣ [آل عمران] ٢٣؛ ٤ [النساء] ٤٧، ٥٤؛ ٢٢ [الحج] ٥٢ ...)

٤) السهودي: الوفاء ٣: ٢٨٢؛ والطالب *Yazid*, 290-291

٥) وقد يكون من اسباب هذا التفضيل القرابة بين خديجة وورقة

٦) البلاذري: الانساب ٦٦ قفا، ٦٧ وجه.

مكة منذ السنين الطوال. فكيف لم يرَ محمدًا ، وقد لهجت به وبتعاليمه مكة بكاملها ، على قول مؤرّخي السيرة انفسهم ؟ وعندما سمع عدّاس محمدًا ، في الطائف ، يذكر اسم يونس ، صاح به بداهةً :« وما يدريك ما يونس ؟ »[1] وهذا دليل على تدور الاسماء الكتابية بين العرب الجاهليين ، حتى اسم اسماعيل جدّهم[2] ، وقد عرف محمد قصّته متأخرًا ، في اثناء حديثه مع الموحّدين[3] . ومهما يكن من صحّة تدخل عدّاس — وهو عبد لا يمثّل الّا فئة منحطة من البشر — فانها لم تكفِ المؤرّخين الرسميين ، فاتجهوا جهة ورقة يضخّمون شخصيته ، ويطوّلون في اسطورته[4] . واذا بجامع الاحاديث القانونية تطلق عليه لقب «القسّ» وتظهره بمظهر العالم المتبحّر المطّلع على دقائق اللاهوت والآداب المتعلّقة بالنصرانية والعلوم الكتابية فتقول :« استحكم في النصرانية ، واتّبع الكتب من اهلها حتى علم علماً من اهل الكتاب »[5] بل انه كان باستطاعته ان يقرأ الكتب بلغتها الاصلية ، اذ كان متضلّعاً من العبرية نفسها[6] . وهكذا نراه يستكمل معدّات النقد الكتابي من لاهوت ، وتفسير ، ومعرفة باللغات والآداب الكتابية ؛ فهو على اتم ما يمكن اضطلاعاً باصول الوحي ، ومن ثمّ ضمانةً لصحّة ما يرى في بعثة محمد . ولم يكن من المعقول ان نرى هذه الثقافة الدينية في عامّة

---

١) اسد الغابة ٣ : ٢٩٠ . وفيه ان النبي ذكر اسم يحيى مؤكّدًا انه لم يُسمَّ به احد قبل ذاك (في البلاد العربية) ؛ اسد الغابة ٥ : ١٠٠

٢) راجع اسد الغابة ٤ : ٣١١ . اما في المدينة ، ذاك الوسط اليهودي ، فيُذكر عدد من المسمّين يحيى ، اسد الغابة ٥ : ٩٩—١٠١

٣) اطلب Snoucke Hurgronje, *Het Mekkaansche Feest*.

٤) ويقرّ ابن الاثير (النهاية ١ : ٣٦٦) ان هذه الاسطورة مضطربة . راجع نسبه المتناقل في اسد الغابة ٥ : ٨٨ ، وفيه ذكر لعدة رجال باسم ورقة بن نوفل ، وكلهم من غير المشهورين . بل ان من الرواة من يزعم ان ورقة كان اعمى زمن التنزيل الاول (البخاري (طبعة استانبول) ١ : ٣) ولعلّهم ارادوا بذلك ان يبرّروا تردّده في الالتحاق بالنبي . اطلب Caetani, *Annali*, I, 235, 238, 260

٥) البخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ١ : ٢ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٤٢ ؛ البلاذري : الانساب ٦ وجه

٦) اسد الغابة ٥ : ٤٢٦ ، وقابل بما في الصحيح في الصفحات المذكورة اعلاه

القرشيين ، حتى في الحنفاء منهم كزيد بن عمرو ، بعد ان جعلتهم السيرة كلهم « أميين » . فوجب اذًا ان يكون ورقة من النصارى ، بل من العربيين بالنصرانية . ولم يكن بالامكان ان يحلّ محلّه احد اولئك المثقفين بالديانة اليهودية لفرط ما اظهروا من الحقد على النبي والنفور من تعاليمه الجديدة ، بشهادة القرآن نفسه .

ولم يكن ورقة من عامة النصارى ، اولئك التجار والمهنة الذين رأيناهم[1] يعيشون احرارًا في المجتمع المكي ، ولكنهم يظلّون اجانب عن السلطة والسيادة ، لا يستون الّا « بالعلوج » ، ولا يتمكن الكثير منهم من التعبير بالعربية الفصحى[2] . بل كان من قريش « صليبة » ، من رجال الارستوقراطية الذين لهم مركزهم في المجتمع الاعلى ، في « الملاء » ، بفضل كرم محتدهم وشرف حسبهم[3] . كان منهم عثمان بن الحويرث ، وكان منهم ورقة هذا وكلاهما من نسل قُصَيّ ، جدّ الاسر الارستوقراطية في مكة . يظهر ذلك ايضًا من اخبار « السيرة » ، وفيها يكثر ورود اسم ورقة ، يذكره جمّاع الاخبار كلما امكنهم ذلك ، معظّمين شأنه في اوائل زمن « الوحي » او بعثة محمد . اما عثمان فقد نفته نصرانيته في الالتجاء الى قيصر ، حتى انه كاد يتسلط مطلقًا على مقدرات مدينته ، لولا ما اتّصف به وطنيّوه المكيّون من نزعة اساسية الى الديموقراطية البالغة حدّ الفوضى احيانًا . هذه النزعة وحدها ، لا نصرانية ابن الحويرث ، هي التي عملت على اخفاق الرجل في مقاصده[4] .

ومن المفيد ان نذكر ان ابا سفيان ، وهو المعروف بسموّ نظره ورفعة مركزه بين قومه حتى كان « لا يسقط له رأي في الجاهلية » ، لم يتراجع عن اختيار اصهرة واحماء من النصارى . ولقد تبعه محمد نفسه في هذا السبيل ، كما

١) ولنضف اليهم تاجرًا كان من موالي الخالديين ذكره صاحب اسد الغابة ٣ : ٣٩٠–٣٩١ : وزوجتي سودة وام حبيبة اللتين تزوجهما النبي بعد ذلك

٢) راجع ما في القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥

٣) ولم ينل الخليف زيد بن عمرو مثل هذا الشرف لانه كان من فرع بني عدي . وانظر كيف يتخلص المحدثون من زيد ورفيقه ورقة عندما تنتهي حاجتهم اليهما *Nöldeke*, 290-291

٤) راجع كتابنا *Berceau*, I, 317 ؛ ثم : *La Mecque*, 270...

قدّمنا . اما مما يلاحظه ولهوسن من انّ « حنفاء » الحجاز يظهرون عطفاً على النصرانية وميلاً اليها اكثر مما يبدون بشأن اليهود [1] ، فلا ارى مندوحة عن القول بعدم قيمته العلمية . لأن كلّ ما عندنا من اسانيد تقليدية عن « الحنفاء » و« الحنيفية » متفرّع رأساً من القرآن[2] . والحال ان النصارى ، في هذا الكتاب ، يظهرون بمظهر افضل بكثير من مظهر اليهود ، اولئك « المغضوب عليهم »[3] . ولم يكن بوسع كتب « الصحيح » الّا ان تؤيد هذا التفضيل الذي يوليه « الحنفاء » الدين النصراني . ولا شكّ في اننا نجتنب كثيراً من الأخطاء والأوهام ، لو انتبهنا دائماً لاصل « السيرة » الجوهري ، الا وهو القرآن .

٣

كان بنو اسد اقرب الأسر القرشية الى النصرانية والدائنين بها . فاليهم كان ينتسب مَن رأينا من النصارى في هيئة المجلس الأعلى ، او « الملاء » الساهر على مقدّرات مكة . وكان غير واحد من مواليهم يشاطرهم في هذه المعتقدات . و « مولى القوم منهم » بل « من أنفسهم » كما يقول المثل القديم[4] . وكثيراً ما طُبّق هذا المثل حتى بشأن العقائد الدينية . وفوق ذلك ، نرى الأسديين — وقد ظهروا اقرب من سائر وطنييهم الى التأثر بالمؤثرات الدينية — يمنحون لقب « الأحلاف »[5] لعددٍ من نصارى غسّان[6] . واذا ذكرنا ان الاجانب عن مكة كانوا ينزلون غالباً في الضواحي والاحياء البعيدة ، في « ظواهر » المدينة ، كما

---

١) *Reste*, 231 — وهناك اسم « حنفا » أطلق على اخت لهاشم ، وابنة له ايضاً (اليعقوبي : التاريخ ١ : ٢٧٩ ، ٢٨٣) ، وأيضاً اسم في مكة رجل من الموحدين (الكتاب نفسه ٢ : ٦ ، ١٤)

٢) راجع بحثنا Caetani, *Annali*, I, 182... ; *Qoran et Tradition*

٣) كما في السورة الاولى « الفاتحة » من القرآن . ولم يظهر النصارى بمظهر المسلمين شيئاً من بغض اليهود وحقدهم . وقد جاء في السورة ٥ [المائدة] ٨٥ : « لتجدنّ اشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود ، والذين اشركوا . ولتجدنّ اقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بان منهم قسّيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون »

٤) اسد الغابة ٥ : ٤٣٥ ٥) الازرقي (Wüstenfeld) ٤٦٦

٦) ورد في اسد الغابة ٥ : ١٥ ذكر صحابي غساني يكنى بابي مريم ، واذاً فهو نصراني . ولكن المصدر لا يذكر هل صحب النبي في مكة ام بعد الهجرة

كان يُقال ، او في « الشعاب » او الاودية المنفرجة المستديرة بالبلدة . فينصبون فيها خيامهم[1] ، من اغصان او من قماش ، حول الكهوف والمغاور ، و«السقائف» التي كان يتقلب فيها ، بعضهم فوق بعض ، رجال السودان ، والعبيد ، وباعة الخمر ، وبنات اللهو[2] ، والكثير من بدو تهامة ، وابناء الأزد الجبليين[3] ، من اولئك الذين كانوا ينتظرون فرصةً سانحة ليزجروا سراة مكة قوة سواعدهم ، ونصال سيوفهم . واذا عرفنا ان الغساسنة النصارى ، « احلاف » الاسديين ، كانوا يتزلون في « البطحاء » او « الاباطح » اي في قلب المدينة ، منزل الأسر الكريمة ، وانهم كانوا يقيمون في جوار الكعبة ، في اقدس بقعة من مكة[4] ، ادركنا ايّ تأثير كان لهم ، وباية عناية كانوا يحيطهم ابناء مكة . ولا شك في ان نفوذ الدولة الغسانية كان يؤثر في ارباب المتاجر المكيّة ، فيدركون ما يستفيدونه من محاسنة رعايا آل جفنة[5] . وان يكن الشعراء يبالغون عندما يلقّبون هؤلاء الامراء « بتاركي الشام » ، فليس من شكّ في انهم كانوا ذوي تأثير بليغ بسهرهم على الحدود البيزنطية ، وحفظهم للدروب النافذة الى بلاد الروم ، فمراقبتهم جميع القوافل في الذهاب والاياب . وهو أمر لم يكن ليخفى على دهاء القرشيين ، ارباب الأمر والنهي في تلك الجمهورية التجارية .

ولم يكن في ذاك العهد أثر لفكرة النجس الناتج من وجود رجل غريب الدين في منطقة موقوفة على دين آخر . انما كان العرب على كثير من التساهل ، بل على كثير من عدم الاهتمام بكل ما من شأنه احتكار الفكرة الوطنية

---

١) وكثيرًا ما ذُكرت «خيام التجار» ، اسد الغابة ١ : ٢٨١ ؛ ابن هشام : السيرة ٧٧١

٢) اسد الغابة ٥ : ٢٨٩ . وقابل بهذا النصّ في اخصّ المدينة : « سقيفة طويلة فيها بغايا » (السهودي : الوفاء ١ : ١١٢)

٣) وكان يسكنها ايضًا بعض القرشيين من الطبقة الدنيا في المجتمع ، وهم الذين يدعون « قريش الظواهر » او « قريش الضواحي » . راجع ابن الاثير : النهاية ٣ : ٤٤ ، ٥١

٤) مسجد الحرام ، الازرقي ٤٥٨ ، ٤٦٠ . وكان المجال ضيقًا حتى ان البيوت كانت تزدحم بعضها فوق بعض وتقترب شيئًا فشيئًا ، فتضيّق « فناء » الكعبة .

٥) كانوا في الحجاز يجابون هذه الدولة ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٥٨ ؛ البخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ٢ : ٢٧ ؛ ابن هشام : السيرة ٩١١

القومية او العاطفة الدينية[1]. ولا يمكن ان يُدلّ دلالة واضحة على التعصب الجنسي والديني بين العرب ، الّا بعد انتشار مذاهب التفسير القرآني[2] ، وعمل اغة التحليل والتحريم المتقفين على طريقة ارباب التلمود. اما في ذاك العهد القديم فلم يكن من النادر ان نرى من « احلاف » ابناء قُصي مَن يدخلون دار النَدوة[3] ، على كونهم غرباء عن قريش[4] ، فيتمتعون بحقوق القُرَشيين ويجلسون الى جنب شيوخ مكة. وفي كل ذلك من رحابة الصدر ، وسعة العقل ، والتساهل الديني في وطني محمد المشركين ما ظهر شيء من اثره في بعض السور المكية القديمة.

وكان من اعمال القرشيين انهم أسرعوا الى استقبال الموحدين الهاربين من المدينة. ففتحوا مداخل جيشهم ، في وقعة أُحد ، امام ابي عامر الراهب ورفاقه من نصارى يثرب[5]. ولا يخفى ما في هـذه المعلومات من دلالة على الميل الى النصارى سواء أكانوا اجانب ام قُرشيين. ذاك ان الانجيل لا يفرض على اتباعه شيئاً من التميّز عن وطنييهم او الانفصال عنهم في طرق معيشتهم ، كما نرى عند اليهود المقيدين باحكام التلمود الصارمة في ما يخصّ الطهارة والنجاسة ، والمزهوّين بسموّهم على « الأُمّيين » ، ابناء القبائل غير اليهودية التي كانوا يعدّونها اجنبية عنهم. فلا يرون حقاً عليهم لاحد افرادها ، على نحو ما جاء عنهم في القرآن : « ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأُمّيين سبيل »[6]. وقد يُكرهون على تأدية هذا الحق للأمي فيؤدّونه ما دام صاحبه قوياً على المطالبة به. وهذا قول القرآن : « ومن اهل الكتاب . . . من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه اليك الّا ما دُمتَ عليه قائماً »[7]. وكم كان الفرق جلياً بين هؤلاء المقيدين باحكام التلمود الصارمة ،

١) وكذلك القول عن بعض الاجنبي ، بالمعنى السامي ، فهو لا يرقى الى ما قبل زمن الخلافة. راجع Yazīd, 304 ٢) القرآن ٩ [التوبة] ٢٨ ؛ وراجع Mo'āwia, 401

٣) الازرقي ٤٦٥ . وهناك ذكر لبعض احلاف قريش الاجانب يصبح لهم حقوق القرشيين انفسهم ؛ الجاحظ ، الرسائل ٦ . وقد درسنا هذا الامر في كتابنا Ṭā'if, 121...

٤) ومنهم غسانة من « احلاف » الاموبين (الازرقي ٤٥٨ ، ٤٦٠)

٥) ابن هشام : السيرة ٥٦١—٥٦٢

٦) القرآن ٣ [آل عمران] ٦٩ . ٧) القرآن ٣ [آل عمران] ٦٨

المنفصلين عن جمهور العرب ، المترفّعين عليهم بتشريعهم الديني والمدني الخاصّ ، الفائزين ، مقابل ذلك ، بازدراء البدو هواة التساهل والتفلّت من القيود ، وبين اولئك النصارى الذين لم يكن دينهم يفرق معيشتهم عن عيشة سائر العرب ، فلا يصرفهم عن حياة القبيلة العامّة ، ولا يفرض عليهم تشريعاً خاصًّا مختلفاً عن تشريع الجدّ تُصي ، وبالتالي لا يدفعهم الى جحود شيء من القومية العربية ، كما كان الحال مع اليهود[1].

* * *

بيد ان هناك مشكلة دقيقة قد تتعارض ظاهرًا وما بسطناه من تساهل العرب وميلهم عن التعصّب في ما خصّ الشؤون الدينية. الا وهي تلك المقاومة العنيفة التي قاوم بها القرشيون ابن وطنهم محمدًا. فكيف التوفيق بين الامرين؟ ذلك ان الداعية الجديد لم يختصّ بدعوة دينية محضة ، بل كان يرمي ، كما يقول مناوئوه ، الى اهداف اجتماعية كان من شأنها تلقلة النظام السائد اذ ذاك و« تفريق الجماعة » على قولهم[2]. ولم تكن تهمة كهذه أُلصقت باحد من النصارى ، ولا من دعاة النصرانية ، قبل ذلك العهد . بل ان كثيرًا من النصارى كانوا ، في تساهلهم العجيب ، يوفّقون بين عقائدهم التوحيدية ، وإكرام الكعبة وغيرها من اماكن العبادة الوثنية[3]. وهؤلاء شعراؤهم يحلفون بالله ، وباللات ، وبالأنصاب ، وبالبيت الحرام ، دون تردّد[4]. وهذه جماهيرهم تحجّ الى مكة ومنى وسائر المواسم والمناسك. وهنا لا بدّ من درس هاتين اللفظتين واقرار ما بينهما من صلة. فان « الموسم » كان يشمل اعمال السوق التجارية خاصّة ، بينما كان « المنسك » يختصّ بشؤون العبادة. وكان الأمران يتوافقان ويجريان معاً كما في

١) راجع بحثنا *Les Juifs à la Mecque*

٢) ابن هشام : السيرة ٢٢٥ ؛ راجع *Mahomet fut-il sincère ?*, 128

٣) اطلب Snouck Hurgronje, ؛ Welhausen, *Reste*, 78 ؛ *Mo'āwia*, 403-404

٤) *Fêtes*, 28, n. 2 . وكان نصارى العرب يحلفون صلبانًا من الذهب ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٩٤ ، وراجع *Chantre des Omiades*, 14-15

٥) كالتلمس ، وطرفة في شعراء النصرانية ٢١٦ . واطلب في *Mo'āwia*, 456 ملاحظتنا بشأن دين الشعراء الجاهليين

عكاظ[1] ، وذي المجاز ، ومنى . ولم يكن حضور الموسم يفرض ضرورة الاشتراك في العبادة. ولا شك في ان المصالح التجارية جرّت نصارى مكة، مقيمين ومارّين، الى عَرَفة ومنى. ولكن ليس لنا ما يدلّ على انهم كانوا يشتركون في الذبائح الدينية، او في الطواف حول الحجر المؤلّه، في «مشاعره» تمامة «ومساجدها»، وفي « العُمرة » المكية. ومهما يكن من أمر فان تحريم الاشتراك في القُدسيّات لم يكن أُقرّ بعد بالدقة والصرامة اللتين نعرفهما اليوم. بل ان النصارى من البدو لا يظهرون على شيء من الاهتمام بهذا التحريم. ولا يخفى انهم كانوا ينتسبون الى كثير من الفِرق والبِدَع المنفصلة المتفرّعة عن المذاهب النصرانية الشرقية[2] حتى لا نعرف بينهم جماعة كاثوليكية صحيحة المعتقد . وكانوا يضيفون الى تفرّقهم المذهبي تبدّدهم في اطراف الجزيرة ، في اماكن بعيدة كلّها عن المركز الكنسي الثابت ، وعن النظام الاكليريكي المقرّر ، ومن ثمّ فقد كان من الصعب على رجال الدين ان يراقبوا سلامة العقائد الايمانية ، ويسهروا على تطبيق القوانين البيعية. وهو ما يشرح نوعاً ما عدم مقاومة النصارى للدين الجديد.

يظهر ان الكعبة ظلّت ، حتى عهد النبي ، لا تنتمي الى اله معروف ، فلا تحمل اسماً خاصاً. اما ما ذكره هوبسن من انها كانت تنتمي الى هُبَل — وهو اله شمالي الأصل لا يُذكر الا في انساب الكلبيين[3] — فلا سند له يقوى على النقد المعقول. ونحن لا نرى اثراً لهُبل في اسم واحد من اعلام الاشخاص المضافة الى اسماء الآلهة ، خلافاً لما تتحدّثه بشأن المثلّث القرشي: اللات ، والعزّى ، ومناة. ولهذا قد يكون في قول البلاذري ما يُرجّح نسبة الهيكل الى مناة « اعظم اصنامهم عندهم»[4]. على اننا لا نجزم بشيء. ولم تكن التحرّيات القديمة والابحاث

١) كان فيها منك ايضاً كما في سائر الاسواق الجاهلية . وكان من مرتادي عكاظ النابغة (ابن سعد : الطبقات ١ : ١٤٥)

٢) يذكر الاغاني (١٦ : ٧٣) ان احباش اليمن يدعون المسيح « نبيّهم » . وتشير السيرة الحلبية (١ : ١٤٤) الى بدعة نصرانية اسمها « الاسرائيلية » كانت تؤلّه مريم العذراء.

٣) اسد الغابة ٤ : ٢٠٧

٤) البلاذري : الانساب ٢٢ وجه . خلافاً لما يزعم ابن سعد : الطبقات ٣ : ١٠٥ ، اذ ينسب الكعبة الى عُزّى ناسياً انه سبق فنسبها (ص ٩٩ من المجلّد نفسه) الى هُبَل

المستطيلة لتكشف عن العلم الخاص بالكعبة ، عن شخصية ذاك الإله الذي طالما دعاه العرب « ربّ البيت » و « ربّ مكة » فحلفوا به في شعرهم ، حتى النصارى منهم ، جامعين بينه وبين الله والصليب[1] . ومن الضروري ان ننتبه لما قد يكون في هذه الأيمان من اعمال التحريف والتصحيف والوضع يقوم بها طلّاب الغريب والنوادر ، او « علماء » الشعر في العصر العباسي[2] . ولا يبالغ الناقد مهما ينسب الى هؤلاء من اعمال النحل والوضع والكذب في ذاك العصر الوافر الخصب بالآثار الادبية ، والقليل الامانة والتحرّج . فلنحذر السير واثقين بين هذه المتاهات والمزالق ، ولننتبه دائماً لغاية اقرار السيطرة القرشية التي اصبحت شيئاً فشيئاً عقيدةً قوميّة سامية فرضت ارادتها على مظاهر الحياة العقليّة ، مبرّرةً جميع الوسائط في سبيل الوصول الى الهدف وتأسيس الخلافة العربية على أُسس اصيلة دينيّاً وتاريخيّاً[3] . هذه العقيدة دفعت جمّاع الاحاديث ، ورواة الحوادث التاريخية ، الى ان جعلوا من الكعبة هيكلاً وطنيّاً يجمع حوله وفود العرب من انحاء الجزيرة كلها . فرأينا القبائل ، حتى ابعدها منازل عن الحجاز ، تأتي مكة في المواسم فتقرّ ضمنيّاً او صراحة بسيادة اربابها من القرشيين . بل لم يتراجع المؤرّخون عن ان يجعلوا بين تلك الوفود ابناء تغلب النصارى يأتون من اقاصي ما بين النهرين[4] . ويستفيد الواضعون من هذا الزعم فيتخيّلون فروضاً وتخريجات تُسنّ على التغلبيين ، وهي في الحقيقة من آثار تسلّط العباسيين وتعصّبهم[5] .

ومهما يكن من تساهل العرب وعدم تقيّدهم بالدين الواحد ، فانه يصعب

---

١) الاغاني ٢ : ٢٤ ؛ وقابل بها في Wellhausen, *Reste*, 87 ؛ *Mo'tawia*, 403-404 ؛ Snouck Hurgronje, *Feest*, 28, n. 2 : المشرق ١٦ [١٩١٣] ٦٧٨ ، ٦٧٩ . وهناك حتى الصحابة يحلفون بآلهة القرشيين ؛ ابو داود : السُّنن ٢ : ٤٥ ؛ النسائي ٢ : ١٤٠

٢) كما في شعراء النصرانية ٢٧١

٣) الطلب ...Yazid. 38

٤) في جغرافية ابن الفقيه ، ١٩ ، ذُكر لاحد ملوك الحيرة النصارى بعد الكعبة . وهناك ملك لخمي آخر يُرسل ابناء بكر وتغلب يجدّدون اتفاقهم في الكعبة (الاغاني ٩ : ١٧٨) . وفي كل ذاك اثر النزعة نفسها . قابل بها في *Mo'tawia*, 397-399 ; *Berceau*, I, 320, n. 2

٥) الطلب اقرار الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ١١٣

علينا ان نقدر مـا دفع شاعرًا نصرانيًا كعديّ بن زيد ، الحيري الأصل ، والملحق بديوان كسرى في المدائن ، الى القسم « بربّ مكة » الى جنب الصليب[1] ؛ لولا ما نعرف من هذه النزعة القومية العباسية ، الرامية كما قدّمنا ، الى اقرار سيادة الهيكل الوطني وشموله انحاء الجزيرة العربية بكاملها .

في سبيل هذه الغاية ، كان المحدّثون والمؤرّخون لا يتراجعون امام شيء مهما يكن من عظم وضعه وفظاعة تزويره . وهذا ابن اسحق ، مؤلف سيرة الرسول لم يكن يرى اثمًا في «اعطائه الشعراء الاحاديث يقولون عليها الشعر»[2] . كما يذكر الذهبي الذي لم يتمالك ان حكم عليه حكمًا صارمًا ، فقال : « وهو صالح الحديث ما له عندي ذنب الّا ما قد حشا في السيرة من الاشياء المنكرة المتقطعة والاشعار المكذوبة . »[3] وكفى بذلك ذنبًا شنيعًا ! وقد انتبه ابن هشام ، وهو اقرب الى الامانة من سالفه ، الى هذه المدسوسات ، فاشار الى بعضها بلطف ، وانكر البعض الآخر بصراحة . وكان من المفترين مَن « ذكر انه يحفظ خمسين الف بيت من الشعر شواهد للقرآن » (كذا) . فهل نؤخذ بهذا القول ، فنظهر اقلّ حذرًا ونقدًا للحقائق من الذهبي الذي ، بعد ان ذكر الأمر ، زاد بلهجة الشاك : « فالله أعلم ! »[4]

اما وقد وقفنا على هذه الآراء في « الامانة الادبية » ، وعلى هذه الاساليب في تأدية الرسالة العلمية حتى في ما خصّ تاريخ النبي نفسه ، فاصبح من السهل علينا ان نتصوّر ما كان يمكن ان يأتيه النحويّون ، واللغويون وطلّاب الغريب والنوادر — وكلّهم يتراشقون تهمة النحل والوضع والكذب ! [5] — من تصحيف

١) في قوله (الاغاني ٢ : ٢٤) :

سمى الاعداء لا يألون شرًّا عليك ، وربّ مكة ، والصليب !

راطلب ايضًا *Yaziḍ* في المحلّ المذكور ؛ وحماسة البحتري (طبعة شيخو) عدد ٢٢٧ . ويمكن الّا يكون المذكور فيها اله مكة .

٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٣٢

٣) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٣١

٤) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ١٨

٥) راجع ابا زيد : النوادر (طبعة بيروت) ٥٨

وتحريف وتزوير في الآثار الشعرية القديمة ، ومنها منظومات شعراء النصرانية .

فان كان ، والحالة هذه ، من قيمة تاريخية لهذه الآثار ، لشعر عديّ بن زيد وشعر زملائه النصارى في العصر الجاهلي ، فانها تدلنا بعض الدلالة على ان ربّ البيت ، او رب مكة ، او اله الكعبة غير المسمّى ، يجب ان يكون هو «الله» ، ذاك الاله « الأكبر » الذي يحلف به كل شعراء الجاهلية على السواء . واذاً فيكون النصارى منهم في حلّ من الإشراك ، اذ كانوا يكتفون بالترفّع عن القيام بالطقوس الوثنية[1] . هذا موقف مؤرّخي السيرة في اهتمامهم بشأن «الحنفيين» وتخليصهم من الشرك ، على تعلّقهم بديانة الكعبة . ولماذا لا يكون موقف النصارى مشابهاً له بالنظر الى هيكل مكة نفسه ؟

هذا ولم يكن من إحراج في شأن الدين . فان النظام القُرشي ، والساهرين على تنفيذه من اعضاء « الملأ » ، كان من ابغض الامور لديهم التدخّل في معتقدات الناس او الضغط على آراء الغير . ذلك ان العربي ، اذا ما تُرك لطبيعته ، كان اقرب ما يكون الى التساهل ، متخذاً شعاره ، قبل زمن القرآن ، أنْ « لا إكراه في الدين »[2] ، متوصلاً الى قمة هذا التساهل بفضل نزعته الخاصة ، وما فُطر عليه من عدم مبالاة وقلة تقوى . فهو لم يبذل جهداً في هذا السبيل فلم يستحقّ فضلاً كذلك !

وكان فهم «للدين» يخالف شيئاً ما نعرفه به اليوم . لم يميّز تمييزاً واضحاً بين الاخلاق والعادات وبين ما يدعوه « ديناً » ، مكتفياً من هذا بصفته القومية او القبيلية الخاصة ، معتبراً انه إرث او «وصية»[3] عن جدّ القبيلة . ومن ثمّ فان القيام بالعبادة في القبيلة الواحدة يمكن ان يشمل جميع ابنائها على السواء . ولا يخفى ان هذه « الوصية » الدينية المتداوَلة عن الجدّ الأول كانت تحتوي خاصة على النصائح و « الوصايا » الخلقية او الادبية ، غير مهتمة بالاعتبارات اللاهوتية .

---

١) اما في شعر الاخطل وامثاله ، فالأيمان لا تعدو القوالب التعبيرية ، راجع *Mo'tania*. 404 والاغاني ٧ : ١٧٣

٢) القرآن ٢ [البقرة] ٢٥٧

٣) وقد درسنا هذه الوصية وما ضاهاها بشيء من التفصيل في بحثنا : « الثأر عند العرب وصفته الدينية » في المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ١-٢١ ، ٤٢٨-٤٤٥ ، ٥٥٧-٥٧٤

وكان كل شيخ ، اذا شعر بدنوّ اجله، استدعى ابناءه وحفدته — كما فعل يعقوب في العهد القديم — وذكّرهم بوصية الاجداد ، « عازماً » عليهم او « مناشدًا » اياهم ، بالّا يهملوا الوصيّة.

وهذا ما يفيدنا لماذا لم يكن للعربي هياكل سويّة. انما كان يكتفي عادةً بالخيمة او المضرب ، مجتمع الأسرة ، وقد دعاه فيما بعد « مجلس القوم » او « مسجد القوم »[1] تجتمع فيه شيوخ القبيلة ووجهاؤها. وفيه تُقام شعائر ذاك الدين البسيطة . الّا في احوال قليلة كان يوضع فيها الحجر المؤلّه في حلقة معروفة « بالمشعر الحرام » فيطوف حوله المؤمنون. وكان على من رغب في دخول ذاك « المسجد » او « المجلس » ان يكون منتسباً الى القبيلة إما بالدم او بالولاء. وهكذا فان العربي الجاهلي لم يتصوّر ديناً انسانيًّا شاملًا ، بل انه لم يتصوّر ديناً اقليميًّا يتجاوز حدود القبيلة المتفرّعة عن جدّ واحد.

ولقد كان محمد ، على الراجح ، اول من فكّر بين ابناء الجزيرة — في « عهده » بالمدينة ، ثم في السور المستطيلة المتأخرة عن الهجرة — بان يرمي الى اقرار اخوّة دينية او وحدة ايمانية لا تستند الى القرابة الدموية. فكّر بهذا المبدأ دون ان يستنتج كل ما فيه من نتائج خصبة. وذلك ان فكرة « الإسلام دين عالمي »[2] لم ترقَ الى ما قبل عهد الخلافة ، محتكّة بما في الديانات التوحيدية من مبادئ عائلة ، مستفيدة من تقدّم النظريات القومية المتسلّطة التي كانت ترمي الى اظهار العرب مظهر الشعب الخاصّ الذي اختاره الله وريثاً روحيًّا لأمم الأرض جمعاء.[3] وكأن ارباب هذه النظرية المكتسحة كانوا يرمون الى تحقيق ما ورد في

---

١) راجع ، بشأن الترادف بين « مجلس » و« مسجد » هنا في *Ziād ibn Abīhi*, 89 ؛ ثم *Ṭāif*, 8, 161 ؛ Snouck Hurgronje, *Mohammedanism*, 45-46 اطلب

٢) وهو ما اشار اليه ڤولتير في روايته « محمد »، قال :

Chaque peuple à son tour a brillé sur la terre,
Par les lois, par les arts et surtout par la guerre. »
Le temps de l'Arabie est à la fin venu.
Ce peuple généreux, trop longtemps inconnu,
Laissait dans ses déserts ensevelir sa gloire. (Voltaire, *Mahomet*, II, 5)

القرآن من وعد صريح للعرب في القول عن الله: « وهو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض»[1].

ولم يكن معاصرو النبي، المتصفون، كسائر العرب، بضيق الافق، والتقيّد بالحدود القريبة، لتنبسط تصوّراتهم الى دين لا يكون قوميًا باديًا خاصًا ضمن التقاليد المتوارثة عن جدّهم قُصَيّ، وكثيرًا ما عبّروا عن هذه التقاليد بقولهم: « دين قُصَيّ ». ولا يخفى ان هذه المبادى، تحول دون نشر الدعوة خارج البيئة القُرَشية. واذًا فلم يكن لهم كبير فضل في التساهل، اذا ما قالوا لأحلافهم او ضيوفهم من النصارى — وقد ذُكرت الديانات — ما كان يقوله محمد نفسه، في بدء بعثته، لمخالفيه ومناقشيه: « لكم دينكم ولي ديني »[2]

* * *

وها اننا وصلنا الى ختام هذا البحث الطويل المملّ. وكأننا لم نتقدّم خطوةً واحدة. فبعد ان استوضحنا النصوص المتفرّقة في روايات « السيرة »، وكتب « الصحيح »، ومجاميع « المُسند » و« السنن » واختلافاتها، وبعد ان قلّبنا الوثائق المتعدّدة، والاسانيد المختلفة القيم، في التاريخ الإسلامي القديم، نرانا مضطرّين الى القول، خلافًا لزعم ولهوسن، ان الديانة النصرانية لم يكن بامكانها ان تؤثّر اثرًا عقائديًا مهمًا في الإسلام الناشىء، مدة العشر السنوات السابقة للهجرة. وهي المدة الوحيدة التي تهمّنا. اما في الحقبة التالية للهجرة فليس من شكّ في اثر الدين اليهودي.

لقد جهلنا كلّ شيء عن طفولية محمد ونشأته الاولى، الّا اشارات خفيفة وتلميحات في سورة « الضحى »، يستنتج منها انه كان يتيمًا فقيرًا[3]. وكذلك نجهل هل قام هذا الناشىء اليتيم باسفار ورحلات قادته الى ما وراء الحدود

١) القرآن ٦ [الانعام] ١٦٥؛ ١٠ [يونس] ١٥، ٧٤؛ ٣٥ [الملائكة] ٣٩؛ وقابل بما في القرآن ٢ [البقرة] ١٤٣: « وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا. »

٢) القرآن ١٠٩ [الكافرين] ٦

٣) القرآن ٩٣ [الضحى] ٦-٨: « ألم يجدك يتيمًا فآوى. ووجدك ضالًّا فهدى. ووجدك عائلًا فاغنى. »

العربية ، وهـل تيسر له ، في اثناء هذه الرحلات — التي لا ننفي امكانها الكثير الاحتمال [1] — ان يتصل اتصالاً وثيقاً ببعض النصارى الشرقيين ؟ بيد اننا استفدنا مما رأيناه عرضاً في تلك الشروح المتضخمة حول « السيرة » من انه لم يكن من يُمثل النصرانية في مكة ، قبل الهجرة ، تمثيلاً لائقاً لا من حيث العـدد ، ولا من حيث المركز الاجتماعي والثقافة العقلية . فلم نتمكّن ، من خلال تلك المعلومات المتفرّقة ، المضطربة حتى التناقض ، المشوّهة بتزعات الرواة والمؤرّخين ، من ان نقف على اثر واحد لنظام كنسي مقرّر ، بـل لجماعة نصرانية منظمة بين اولئك الباعة والتجّار ، روّاد متاجر مكة واسواق تهامة . اما الاساقفة والرهبان والقسيسون والشمامسة وسائر رجال الاكليروس المذكورون في تلك الاحاديث فهم اقرب الى اشخاص القصص والنوادر المخترعة في سبيل ايلاء الحـادثة حياةً زائفة وقتية ، منهم الى الحقيقة التاريخية . ولا غاية من ذكرهم ، في اعلاء مرتبتهم الرسمية واقرارهم في مراتب النظام الاكليريكي ، الّا تعديل شهاداتهم المزعومة بصحة الدين الجديد ، وحقيقة بعثة محمد . فلنحذر استخدام هذه المواد الموضوعة في سبيل غاية متأخرة .

واذا فلم يكن من جماعة نصرانية وطنية في مكة . الّا ما تحققناه من وجود بضعة نصارى لا يشكّ في شخصيتهم . وقد لا يتجاوزون العشرة من القرشيين الصميمين . يُضاف اليهم بعض «الاحلاف» الملتحقين بالاسر المكية . عـلى ان هناك كثيراً من العبيد ، والمغامرين ، والصعاليك ، وباعة الخمر ، والتجار ، كانوا يمرّون بمكة وجوارها فيقيمون مدّة عقد الاسواق ، او يدخلون مأجورين في الجيش المكي ، او يقومون ببعض المهن البسيطة ، وهم على الغالب من الاحباش ينتمون الى دين خليط من النصرانية واليهودية الحبشية ، يدينون به منفردين ، لا تجمعهم سلطة دينية ، ولا تُشرف على حياتهم وسلوكهم ادارة قانونية ، منفصلين بعضهم عن بعض بفروق اللهجات ، وتدابر المصالح والمنافع ، وتنابـذ الانساب ، وتباغض البدع والانشقاقات العقائدية التي كانت تقسم

١) والتي تبسّط في ذكرها واضعو اخبار الرسول كابن اسحق ، وابن هشام ، وابن سعد .

الكنيسة الشرقية ، حين كان الامبراطور هرقل يحامي عن بدعة المشيئة الواحدة. وانه لمن الصعب ان نتصور نصارى السوريين - البيزنطيين يختلطون برفاق بلال ، وزَحْشي ، وابي رُوَيحة وسائر الاجلاف من الحبش الذين كانوا يأهلون اكواخ « الظواهر » وكهوفها وسقائفها.

وليس في هذه البينات المختلطة ، الجاهلة ، ما كان يفيد محمداً معلومات واضحة دقيقة عن النصرانية . يؤيد هـذا ما نراه من الغموض والتردّد في المعلومات المسيحية البادية في السور المكية . اما في يثرب فقد اصطدم بمقاومة ابنـاء اسرائيل . وسرعان ما شعر بعدم اتفاقه مع النصارى واليهود . فاخذ يرمي الى إقرار دين ابراهيم ، والد اسماعيل جـدّ العرب ، ومؤسّس الكعبة ، الذي « لم يكن يهودياً ، ولا نصرانيّاً ، بل حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين . »[1] وهكذا ، بعد ان انحطّ اليهود والنصارى ، ابناء الشريعة القديمة والوحي السابق ، يتّجه الله نحو العرب «فيجعلهم امّةً وسطاً ليكونوا شهداء على الناس . »[2] وهكذا ، كما ابنّا في بحث سابق[3] ، يتحوّل الدين الموسوي — لا النصراني — الى شريعة جديدة في سبيل حاجة العرب.[4]

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٣٦ ، ١٣٤ — وفي ابن هشام : السيرة ٣٨٤ ، ان نصارى نجران كانوا يقولون بنصرانية ابراهيم . وهو أمر ضروري لشرح الآيات المذكورة.

٢) القرآن ٢ [البقرة] ١٤٣

٣) راجع *Adaptation*, 186

٤) او كما يقول رينان : « الى نشرة عن اليهودية معالجة وفقاً لذوق العرب » Renan, *Marc-Aurèle*, 693